حوار مع انتونيو تابوتشي

في هذا الحوار الذي أجراه: فابيو جومبارو في (مكزين ليترير) يقف المبدع في مكانه الصحيح بين غرابة الوضع البشري وغرابة الوضع السياسي، المبدع ضحية ومدافعاً عن الضحايا. خلال خمسة وعشرين عاماً كتب كابوتشي نحواً من خمسة عشر كتاباً أكسبته شهرة عالمية منها: لعبة العكس وليلة هندية والملاك الأسود ... وغيرها، وكمختص بالأدب البرتغالي ترجم الأعمال الكاملة لفيرناردو بيوا.

الأدب أهم ما بقي لنا من حريتنا

ترجمة: جودت جالي

يدرس كابوتشي الأدب المقارن في جامعة سين، وينشر منذ سنوات مقالاته في صحيفة (اليونيتا) اليومية و(ال بيس) يفضح فيها مخاطر الهيمنة الشاملة لمؤسسات بيرلسكوني على إيطاليا. عن روايته الأخيرة (فات الأوان) وعن حملته ضد بيرلسكوني كان هذا الحوار مع (فابيو كامبارو).

،، بعد روايتين ملتزمتين بحبكة محكمة لماذا قررت أن تكتب رواية رسائلية عن العواطف؟

- الأدب أرض واسعة فيه طرق عديدة يمكن للكاتب أن يسلكها. حب العلاقات الإنسانية كثيراً إنها موضوعة سبق لي استقصاؤها إلا أني حين أبدأ الكتابة لا أملك أهدافاً محددة. فالأدب مغامرة مفتوحة وربما كان هو الحيز الأكثر أهمية الذي بقي لنا من حريتنا. يكون اهتمامي في البداية أن أستكشف فضاء الصوت. في الواقع أن الرسائل هي أداة الاتصال الأقرب للصوت لأننا حين نكتب رسالة فإننا نتحدث إلى شخص آخر. الرسالة تستبدل الشفاهية بصوت داخلي لهذا اخترت الفن الرسائلي واستخدمته بأسلوب فردي وبلا بناء حواري. الرسائل هنا دون رد دائماً.

،، هل هذا يعني رمزياً أن التواصل مستحيل؟

- يمكن القول أن هذه الرسائل موجهة إلى نساء أشباح وكاتبوها أنفسهم مجرد أصوات. كتابي عبارة عن حوارات ناقصة بين أشباح، حوارات يسيطر عليها الندم على ما كان يمكن أن يكون ولم يكن. في الحقيقة أني أروي حكايات لم تعد ناقصة كأوعية من لبن رائب عتيق.

،، يدور الكتاب حول علاقات غرامية لا تنتهي نهاية سعيدة قابلة للاستمرار أبداً لدرجة يمكننا القول فيها أن السعادة لا يبلغها الناس مطلقاً.

- السعادة المستحيلة تهيمن على أدب القرن العشرين كله. في حكاياتي هنا أفكر فعلاً بحالات تصل متأخرة عن موعدها، خارج التوقيت. تغير الوضع البشري خلال القرن الماضي، الإنسان المعاصر يشعر دائماً أنه مزاح جانباً ومقطوع عن الواقع وعن أفعاله ذاتها وعواطفه إنه دائماً متأخر عن السعادة أو متقدم عليها فلا يلتقيها. إنها محتجزة دائماً إما في الانتظار أو في الذكرى. أدب القرن الماضي كله يستحضرها لنا هكذا من كافكا إلى بيو إلى مونتال.

،، موضوعة الرحيل الحاضرة في عملك كله تهيمن هنا أيضاً على روايتك الأخيرة.

- صحيح. بطبيعتي أفضل الحركة الانتقالية. أنقل نفسي من مكان لآخر ثم أحن للمكان الذي غادرته للتو. ربما كان هذا إعلاناً عن الشعور بالانقطاع عن الواقع وانعدام الملاءمة الذي تحدثت عنه.

،، العيش بين بلدان عديدة وثقافات عديدة، هل هو صعب؟

- بالنسبة لي.. كلا. أشعر بالارتياح في التنقل. الناس بحاجة إليه جسدياً وعقلياً، فيه يقل شعورنا بالوحدة وتتقارب قيمنا وآراؤنا وهو يعكس الرغبة في الانتماء لحقيقة متعددة الثقافات ولكنه ليس سهل التحقق دائماً.

- تكويني تحقق داخل عدة بلدان وعدة ثقافات ولذلك لا يمكنني أن أحصر هويتي بالتراث الإيطالي. من الواضح أني ملتصق ببلادي وأني كاتب إيطالي اللغة. هذه اللغة هي وطني الحقيقي وإن كتبت أحياناً بلغات أخرى. الكتابة بلغة أخرى من جانب آخر تجربة ممتعة جداً ومليئة بالمفاجآت.

،، في روايتك نوع من التعارض بين جمال المناظر والصروح الإيطالية والسخف- وحتى الوقاحة أحياناً- التعارض بين الحياة الاجتماعية والثقافية لشبه الجزيرة. لماذا؟

- إيطاليا بلد متناقض فهي من جهة أنتجت أعمالاً فنية كغيرها من البلدان ومنحت الكمال لـ (جيوتو) و(ليوناردو) ومن جهة أخرى هي بلد الساخر الموسولينية والـ (بوزات) البيرلوسكونية السخيفة. أنا مقتنع بأن الجمالي لصيق بالأخلاقي والسياسي، فجوهر الأفكار السياسية يعلن عن نفسه من خلال الخيارات الجمالية. نحن منذ زمن نشارك بالاحتفاء بالذوق الهابط، بالبشع، بالزيف. بيرلسكوني يعطي تجسيداً سياسياً لهذا الاتجاه.

،، مرة بعد أخرى اتخذت موقفاً حازماً ضد رئيس الوزراء الحالي. ما الذي تخشاه فيه؟

- لو شاهدنا فيلماً عن فترة موسوليني فإن جميع حركاته تبدو لنا مضحكة ولكن، الإيطاليين لم يلحظوا حتى الآن هزلية الحالة المأساوية التي تغرق فيها البلاد الآن. ما أخشاه هو أن يتكرر التباس عهد موسوليني فلا يرى الإيطاليون تفاهة النزعة الاستهلاكية التي تحيط بيرلوسكوني وأخشى أنه ينوي تغيير جوانب معينة من كياننا، إن كياننا الأصيل هو عدوه اللدود، لأن رؤيته للعالم نقيض له، إنه يحلم ببلد يتحول إلى مشروع تتحدد فيه قوى العمل وتنعدم فيه النقابات وحكومته تحاول الحد من استقلالية القضاء وبهذا يفرغ ديمقراطيتنا من معناها.

،، ما رأيك بحلفائه الاستقلاليين من رابطة لومبارد وما بعد الفاشيين في الاتحاد القومي؟

- تحالف مثير للقلق ولا أدري إلى أين سيقودوننا. إنه لا يمثل تحالفاً يمينياً حديثاً وليبرالياً، مواقف الرابطة كارهة للأجانب وعنصرية وما بعد الفاشيون يميلون إلى عودة الميثولوجيا والأيقنة الفاشية كلها. نحن على الصعيد الثقافي تسهم في رد الاعتبار لمرحلة الفاشية وجمهورية سالو. تنتشر كتب تصرح بطبيعتها التعديلية مما يظهر أنهم يريدون ابتلاع الثقافة الإيطالية ولأنهم لا يستطيعون الاستيلاء على المثقفين فإنهم يحاولون أن ينتزعوا منهم البنى الثقافية كدور النشر والانتاج السينمائي والصحف والمجلات.. الخ وهم الآن يأملون حتى في إفقار المتاحف والتراث الفني الإيطالي الضخم.

،، كيف قاوم عالم الثقافة الإيطالية هذا التطور في المشهد الثقافي؟

- ديمقراطياً.. تحركت المعارضة والمثقفون في البرلمان تعبيراً عن آرائهم ولكن التعبير بحاجة إلى قنوات اتصال وجزء كبير من وسائل الإعلام يسيطر عليها بيرلوسكوني بشكل مباشر أو غير مباشر. لا يجوز الاحتكار الإعلامي في بلد ديمقراطي ولهذا فإن إيطاليا حالة شاذة في أوربا. المثقفون يعلنون باستمرار قلقهم ولكن امكانيات التعبير تتناقص وهكذا فإن عنوان روايتي (فات الأوان) هو بمثابة دق لناقوس الخطر وهو ليس الأول فنحن منذ عشرة أو خمسة عشر عاماً قد أطلقنا كثيراً من صرخات الإنذار التي لم تجد أذناً صاغية لسوء الحظ وهكذا فقد ترك رجل ليستحوذ بمفرده على السلطة الاقتصادية ووسائل الإعلام والآن يستحوذ على السلطة السياسية. لقد فضحناه ومع ذلك انتخبه نصف الإيطاليين.

،، لماذا؟

- القيم التي أوصلها بيرلسكوني للناس هي قيم المال والنجاح السهل. لقد وعدنا بأرض النعيم والناس يصوتون لصالح من يجعلهم يحلمون. يجب أن نستعيد هؤلاء الإيطاليين كلهم وأن نقدم لهم قيماً بديلة ومفاهيم بديلة.

في الذكرى الثالثة لرحيل سامي محمد

لماذا لم تصدق عروض إنليل أيها الصديق؟

سهيل سامي نادر

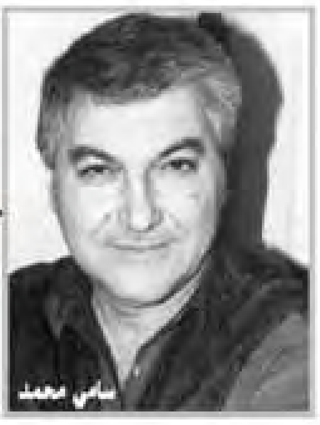

في اليوم الذي غادرنا فيه سامي محمد (2000/9/28) أمطرت السماء على غير توقع. كان قد ووري التراب صباحاً، وفي المساء كانت مائدته المخصوصة في حديقة اتحاد الأدباء جاهزة إلا أنه لم يحضر، وقد آثرنا أن يظل كرسيه فارغاً.

فجأة تغير الجو وأمطرت، لتحل بيننا، نحن أصدقاءه الحزانى، ميتافيزيقيا لها تاريخ صغير بيننا. وكنت أفكر أن سامي محمد الذي اعتاد عدم التصديق رأى في هذا المطر المفاجئ مجرد نكد إضافي من صديقي إنليل. لم يكن ليصدق بأن لنا قدرة على جلب الأعاجيب. كان يائساً من وجود امكانية أخرى، امكانية فرح على سبيل المثال، ومطر، وحرائق نظيفة، ومصادفات تخرق نظام الحياة الرتيب.

في أيام الصيف كانت الحرارة تحول الهواء إلى ما يشبه الجدران التي تطبق علينا مع كل رشفة وكان لا يني يفتح منديله ويمسح عرقه متذمراً أنه يمنحنا وجهاً غضوباً لا يقبل التداول والتسامح. ما كان يطيق الحر، ولا الأحاديث المتصلة، ولا السماح بتعليقات مرحة. وإزاءه كنت أجن من الحر، ومن صمته المتجهم، فأصبح عبثياً أحاول تحريك الهواء والعواطف والكلمات. أرفع رأسي إلى السماء وأستخير إله الرعد والبرق والصواعق السومري: لطفك إنليل.. نسمة هواء!

وكان يحذرني مستاء من سخفي وتهريجي، مدركاً أني أدس عليه شغباً لا يستطيع قبوله. وكان إنليل كثيراً ما يستجيب أو يتظاهر بذلك فيندفع ببضع هبات لا ندري من أين تأتينا، فأمعن في استهتاري، مشجعاً إنليل على المزيد من الكرم. لكن سامي محمد لن يكترث لهذه الأعجوبة، فبعد كأسين لا يعود إنليل سوى إله ثانوي، أما هو فيتحول إلى كبير الآلهة مردوخ، مهزوماً في مكان ما من داخله، متظاهراً بأبهة لا تبددها إلا زلات لسانه، الضحكة لا يمكن قمعها، إلا إشارة ملوكية كان يطلقها لإسكات صوت ما ارتفع فجأة في عمق الحديقة، اش ش ش!

في السنوات الأخيرة من حياته بدت شارته الملوكية مستهلكة، وتجهمه بدا طريقته في الدفاع عن نفسه. ممن؟ لا أدري. لكنه أخذ يخاصم الذكاء، والأريحية، والنقاش الجدي. كان يمارس الموت كمثقف، لكنه ظل قوياً بالتكرار اليومي، بالأحرى بسعادة الحي الذي وجد ملجأه الأخير الآمن.

لقد حدث لصديقنا سامي محمد أمر غامض لم نستطع أن نتبينه منه، فهو لا يشكو من شيء، بل يشاغب على شيء. في الصباح كان يبدو موجوعاً من الليلة الماضية، وفي الليل كان يمتلك المهارة في الدفاع عن نفسه ضد أي تدخل في شأنه. وكان يحتمي بالتذكر الذي أضحى خلاصنا جميعاً، معززاً أهلينا اللامبالاة.

كنا نسهو، وكان يسهو، وبالسهو وحده كانت الحياة تمضي بلا مشكلات، وبلا توقعات لا طائل منها.

لم يكن سامي محمد الاجتماعي في الظاهر، وأظن أنه بسبب الدور لا الحاجة، يعترف لأحد بهمومه الشخصية على نحو حميم. كان ببساطة يتسلى خارج همومه، ولعله كان يحطمها داخله، ويتناساها بالشغل والشرب. ما كان يطيق أن يكون جاداً، لكنه يفضل أن يظهر جاداً حتى لا يبدو ضعيفاً. الهزل عنده ليس ضد الجد لكن ليس هو المرح بل اللعب. وكانت روح الممثل الوسيم تعينه في ذلك. أما روح النجم الذي كانه فقد منحته استقلالية قادرة على التفكير بالنيابة عنه، تحميه، تلعب به وتلعب على الآخرين، وبها كان يفرض شروطه في عرض مدهش من عدم الرضا بأشياء غير محسوسة وغير معطلة.

كان هذا يتعبه ويتعبنا، ولقد سها وسهونا أيضاً عن أن طريقته هذه أضحت جسداً له، هذا الجسد الذي كان بحاجة إلى الراحة من الرتابة والتكرار والضغط والتمثيل واللعب والنجومية. ولقد سها هو على نحو خاص، خلف جسده الفارغ ووسامته المؤكدة، عن تبدلات ضغطه الدموي المنذرة بالخطر.

- كان معجباً بجملة يرددها نسبها إلى مالارميه، (إن جسدي لحزين!) لكن ما كان يعرف شيئاً عن جسده في الحقيقة غير استهلاك الحزن الذي فيه بعمل حزين كان يدافع عنه كأنه إنجاز. والحال أن حزن العمل كان أقسى من حزن الجسد الشاعري، بل أن الأول صنع الثاني، إلا أن الثاني في الصورة التي كان يظهر فيها في المرآة وأمام نظرنا، كان قوياً، وما كنا على أية حال نمتلك فكرة واضحة عنه نحن المستهلكين الذين لا نصيخ السمع لإنذاراته المبكرة.

كان هو يتندر عليه، وكنا نؤجل التعرف عليه، وكانت لدينا حالة مشتركة في النظر إلى أجسادنا بوصفها أقل من آلة، بل عرقلة، شغب بسيط في شارع. ما الجسد في حياة لم تعد حياة، غير عرقلة؟ الاعتياد لا يرينا إسرافنا الفظ، وكنا أرواحاً على أية حال، وسامي محمد كان يشرب لكي يجعل من روحه روحاً مركزة ناسياً ومتناسياً أن الحياة كلها هي من تركيزات الجسد، من علاقات قوى يدخل فيها الجسد كحد أصيل. وما كانت أرواحنا على أية حال في منجى من علاقات القوى الخارجية التي تلف أجسادنا معها، وتضعها تماماً على خط النيران، وعلى خط العذاب والموت وتحت عدسات السلطة، وتحت رقابتها وعسفها والمخاوف التي تزرعها في أرواحنا وتستحيل إلى جسد.

ماذا نعرف عن (هذا) الذي ننسى اسمه، وإذا ما تذكرناه، بسبب وخزة الألم لا نمتلك الوقت الكافي لكي نستجيب إليها. الوقت الكافي! إنها نكتة، فنحن نمتلك أكثر من وقت كاف إلا أننا مشغولون بحالة تفكير دائمة عنه، مشغولون بالمناورات بعيداً عنه لكي نأمن!

كان هو مشغولاً في دوامة عمل لا يشبه العمل. وما أسهل ما كان يتبجح بحريته في الوقت الذي يعترف بأنهم ألقوا القبض عليه وانتهى الأمر.

الوقت الكافي! لنكرر هذا.. ونعم.. ما كنا نمتلك الوقت الكافي لكي ندمج أجسادنا بأرواحنا، ونقرر، حتى على سبيل التجربة، حداً جديداً من علاقات القوى. فالوقت وانعدام الوقت يرتبطان بالأمل، وأحياناً بالوعد، ونحن لم نكن نمتلك الاثنين.. وكان سامي محمد قد تخلى عن الاثنين.

كان يمتلك كل امكانات المثقف الحر.. لكن الزمان كان ضده، أتعبه، فأتعب نفسه، وسوف معه فسوف على نفسه.

تلك هي أعذار سامي محمد.. وأعذارنا.

محطات

بغداد

طارق هاشم يقدم السياب

شهد المسرح الوطني تقديم أول عرض مسرحي بعد زوال النظام السابق. والعرض من تمثيل وإخراج الفنان العراقي طارق هاشم، وهو بعنوان (القبر وأفياء المدينة). ويذكر أن هذه المسرحية اعتمدت قصائد منتقاة للشاعر العراقي بدر كر السياب، في عمل جمع على خشبة المسرح. تميز العرض بتقنيات متميزة، كانت الصورة من أبرزها. وقد لفت الفنان طارق هاشم أنظار الجمهور، إذ صرح بعضهم بأن العرض يمكن أن يعد درساً في الإفادة من الشعر في بناء النص المسرحي. وقد سبق للمخرج أن عرض هذا العمل في كل من لندن والدنمارك وعمان وكردستان. يذكر أن نشاطات الفنان طارق هاشم لا تقتصر على المسرح، إذ سبق له أن عرض في مؤسسة (المدى) مؤخراً ثلاثة أفلام قصيرة متميزة أنتجها في الخارج العراق، منها فلم، وثائقي عن الفنانة العراقية

كربلاء

أمسية شعرية أولى

بعد توقف طويل نسبياً للأماسي الثقافية في كربلاء، افتتح مؤخراً مقر جديد لاتحاد أدباء وكتاب كربلاء. وضمن برنامج ثقافي متنوع أعده أدباء وكتاب المحافظة، باشر المقر الجديد أول أمسياته الثقافية، عبر أمسية شعرية شارك فيها الشعراء: هادي الربيعي، ورضا الخفاجي، وعلاوي كاظم كشيش، ورفعت أحمد، وصلاح السيلاوي، ومحمد الصفار. قدم للأمسية الشاعر أحمد آدم، وحضرها جمهور غفير من الأدباء والكتاب والفنانين. وقد علمت (المدى) أن الأمسية القادمة ستكون للشاعر ماجد حاكم موجد، في حديث له عن تجربته الشعرية، مع مداخلة نقدية للروائي والناقد علي لفته سعيد.

دمشق

رواية الخائف والمخيف

زهير الجزائري
الخائف والمخيف
رواية

صدرت عن دار (المدى) رواية الكاتب زهير الجزائري (الخائف والمخيف). وفي هذه الرواية يتابع الكاتب مسار روايته السابقة (حافة القيامة) حول سيرة الدكتاتور وحروبه منظوراً إليها من عين روائي يسجل هذه السيرة فيختلط الواقع بالتخيل. ورغم أن الكاتب غرب المكان والزمان إلا أن الرواية تكشف رؤية الروائي للواقع العراقي حتى عشية الحرب الأخيرة.

بغداد

مقهى الجماهير ملتقى للمثقفين

في آب (2002) أنشئ في مقهى الجماهير الكائن في الباب المعظم ملتقى ثقافي أشرف عليه الأستاذ مؤيد البصام، بمعية عدد من المثقفين العراقيين. وقد سعى العاملون على تأسيس هذا الملتقى إلى أن يكون حوارياً يفتح أبوابه على التعددية والاختلاف في الفكر والممارسة. ومنذ إنشائه ضيف الكثير من

مناقشة نص (متون الأهرام) لجمال الغيطاني.

يذكر أن الملتقى أقام مؤخراً ندوة عن المثقف والثقافة العراقية، أعقبتها جلسة مع الأستاذ مفيد الجزائري، وزير الثقافة الحالي.

قصائد

محمد حبيب

■ الرجل الرمادي

الرجل الأكثر عرياً من صحراء
الرجل الرمادي..
لعباً بالأوبئة ونفايات الحرب
لم يدخر لكهولته مسرات مؤجلة
ولا يحلم بنهايات سعيدة
لحياته المكتظة بالندم.
هو هكذا..
يكتب أشعاراً غامضة
ويعشق نساء لم تقع عليهن عيناه
وبيدين مليئتين بالندم
يصافح ما تبقى من مجده التليد.
هو هكذا!
ينام على فراش من حرير وأرجوان
وبغير الذكر
ومناجاة أهل البيت
ما ختم ليله الطويل.
كأن الأيام قد توقفت في محراب صلاته
فهي لا تبدأ إلا منه
ولا تنتهي إلا إليه.
هو من علم الأشجار الصمت
واليمام الهديل، والأزهار الحكمة والأريج
وهو من علم الأمهات النحيب آخرة الليل.
زوادته الصبر وبقايا من عزه السليب.
لا عطر للصباح بغير شذاه
ولا طعم للمساءات بغير ندمه.
هو الناسك المتعبد، والشاعر الأمير
سليل ملوك وأمراء وصعاليك
ملأوا الكون بضجيجهم
وما خلفوا غير مملكة من رماد.

■ امرؤ القيس

((سيذكرني قومي إذا..))
سيذكرني قومي.. متى
إنهم ما فتئوا يذكرون مجدي
ويرفعون راياتي السود.
ما فتئوا يمجدون هيبتي
ويغدقون علي ألقاباً ناصعة البياض
غير أن أحداً
لن يقاتل من أجلي.
أنا أعزل ووحيد
إلا من حرب ندمي
وجوادي الذي يفتك به الظمأ.

تخطيط عاصم عبد الأمير

■ أصدقاء

الشاحبون أصدقائي
ذوو الصدور العامرة بالفجيعة
والأحلام المخبأة تحت الوسائد
الذين ألبستهم الحرب ثياب كهولتهم
فأغدقوها رضاً وبهجة.
زارعو الآس على أكتافهم
وعلى أفئدتهم أرواح ظامئة أبداً.
الشاحبون كثير!
أدخلوا البهجة في ليل الناس
وبرعماً برعماً
أطفأهم الشجن.
ولكي يكونوا عند حسن ظن النهارات بهم
رحلوا أول الفجر
تاركين على النوافذ
عبق الذكريات.

فلسفة اللون في ملحمة شيركو بيكه س
إناء الالوان

صباح الانباري

اللون عند شيركو بيكه س يتأسس على نحو شعري قائم على أساس مزج الدلالات الذهنية بالدلالات المسموعة واكتساب أحدهما لخصائص الأخرى، بمعنى أنه يمنح اللون خصائص صوتية بخصائص الرؤية فتشكل لوناً شيركوياً قادراً على الولوج للتحري إلى عوالم الإنسان الداخلية والخارجية.

لقد كتب شيركو بيكه س أول ملحمة شعرية عراقية للألوان المسموعة التي عزف أنغامها على مزماره السحري، وشد نوتاتها على أوتار الشعر المعاصر.

لقد جئت هذا المساء
كي أستحيل ناياً وأعزف الألوان

إنه وحده الشاعر على أن يستحيل ناياً فيعزف الألوان ويصهر عناصرها في بوتقة واحدة أو إناء واحد هو إناء الحياة.. حياة الشاعر الصاخبة المستفزة دوماً، وحياة شعبه وقومه الملحمية بمسمياتها وعواصفها وعواطفها وشجونها وظنونها وويلاتها وخرافاتها ومرارها وكل ما فيها من ميتات جماعية.

يبدأ شيركو بيكه س من الأصفر آخر الألوان الخريفية بعد اصفرار شجرة عمره الستين وتساقط أوراقها الصفر، وبعد أن حضرت "عاصفة الأصفر" في حياته ممراً أخلاقياً وفعلت فعلتها في حياة قومه وأحزانهم. إن ما يميز ألوان شيركو هو قدرتها على التعبير عن ذاته وهي تخترق ذوات الآخرين أو تنصهر فيها أو تتماهى معها فضلاً عن قدرتها في النفاذ إلى عمق الأشياء واستبطانها واشتغالها على إعطاء الأحداث ألوانها وخصوصياتها. إن بدء شيركو بيكه س من الأصفر، من خريف العمر، منحه انتقالات واسعة في الزمن، وقدرة استرجاعية مشحونة بطاقة الولوج إلى المراحل المختلفة لبيان حالات اللون في الفترة الزمنية الواحدة والتي تعقبها أو تسبقها فاللون الأبيض الذي يعقب الأصفر في القصيدة يشكل قطباً نقيضاً، ومسافة تمتد من الشيخوخة إلى الطفولة، إلى زمن النقاء الأول والحلم الأول والحب الأول والبراءة البيضاء حيث يقع ما بينهما على امتداد تاريخ هذه المسافة الفادح للكوارث والويلات والإبادات الجماعية، ولا غرابة في أن يبدأ الشاعر، بعد ذلك، باللون الأسود:

حين أنفخ في الأسود
يمتزج الوشاح النسوي الأسود الشعاري
مع الورود السود لنباتاتها وجدائل الرثاء الطويلة
لكناتي!

الأسود عزاء طويل ومرثية لأحزان الشاعر وشجون قومه وعذاباتهم.

ولئن كانت "العاصفة الصفراء" منذرة بسقوط وريقات العمر الأخيرة فإن العاصفة السوداء" جرت وراءها المواجع والمواجع وفرزت على حياة الشاعر وقومه ستر الظلم والظلام فانتهكت قوى الخير النورانية ملقية بها في ديجور أشد حلكة من ظلام روح الطغاة والبغاة وسارقي نهارات البشرية وأفراحها.

واللون عند شيركو تجربة كلما اتسعت مداركها اتسعت رؤاها، وتجاوزت بشمولياتها ما هو خاص إلى ما هو عام، وما هو فردي إلى ما هو إنساني حتى —

أصبحت الأرض كلها مركباً لرؤياي
وإناء لألواني

وصار شيركو ينظر من خلال ذاكرة اللون أو ذاكرة الألوان الجمعية إلى كل شيء يحيط به فصار لكل شيء لونه الخاص. لو أنه لا يعتقل ويقيد لون، ولو أنه تترف معها وتتزامل متلبسة بالسواد لون، ولكنها إذ تتمثل بين غصنين متيبسين لون. وصار اللون صوتاً وعيناً وذاكرة وحكايات وكلمات ومكاتبات وأرشيفات ولوحات وقصص وضحك وبكاء وولادة. وصار الشاعر عرّاف الألوان وراويها لنا ((يروي قصة اللون للمنطق والشم)). إن شيركو وهو يتحول إلى راوٍ للألوان التي عاشت إلى الرياض بعد أن فحت ومالت يروي لنا اثنتي عشرة لوحة ممهورة بكل معاناته ومحاسنه وعزلته وغربته وامتلاء سمعه بصراخ النسوة في جنون "الأنفال".

وعلى الرغم من هذا كله تبقى الألوان خارج ذات الشاعر متشابكة متشكلة مثل لوحة ناقصة مقطعة الأوصال لكنها داخل ذاته. وفي بقي به، تتساقى كصفاء أبهى (فإذا هي الألوان غير المثمرة تلد من جديد) مختلفة أو فأراً جديدة لم يرها أحد من قبل. يقول شيركو بيكه س في لوحته الأولى:

شيركو بيكه س
پره نگدان
أو
إناء الألوان

عندما تعاشر عزلتي جسد الخيال
يولد بعد هنيهة وفي غرفة انبهاري لون
لا يشبه لون الشباب عند أصيل الغربة
ولا الصدف
ولا الدخان ولا الرماد
إنه لون يشبه ذلك اللون
الذي يتجلى عند امتزاج مياه ينبوع العشاق
بمسبحات النساء وتراب "الأنفال"

إن هذا اللون الذي لا يشبهه لون آخر مهما مزجت من الألوان يسميه الشاعر في لوحته الثانية عشرة "اللون الأنفالي". وهو عنده مصهر للعظام البشرية، ومعصرة للأرواح، ومطمرة للنفوس، ورحم يلد في إنائه قصصاً أشد هولاً من كل ما عرفته البشرية من الكوارث والأحجيات. فإن كان حجم تلك الأحجيات مرهوناً بحجم القدر الغشوم المتسلط على أبرياء الناس فإنه في ملحمة شيركو بيكه س الشعرية مرهون بحجم الدمار الجماعي الذي يلحقه بهم أعتى الطغاة وأشرس البغاة وأشدهم عطشاً للدماء البشرية.

ولعل "بارق" هو الرمز الأكثر دلالة على ذلك الطاغوت الرهيب.

لقد جاء "بارق"
- جاءت ثنية بآلياتها العسكرية
وتيجانها وفجها ثابتة على الأكتاف!
جاء "بارق"
جاء الحقد لابساً خوذته الحديدية، أتت النار لابسة زوجاً من الحذاء الجهنمي

لقد جاء (بارق) فنزلت جهنم الكرى على أفئدة النساء والرجال والشيوخ والأطفال.

فها هي ذي امرأة من (كلار) تروي لنا قصة لوعتها الستة وهي تبكي دماً ودمعاً واحتراقاً على ست حيث اختطفها (بارق) من بين يديها مغيباً أرواحها الست في قيامة" الأنفال". لقد تركها وهي تتمنى الموت على يديه فأي موت أشد قسوة وضراوة من النظر إلى ست فلذات من كبدها مشوهة وممثلاً فيها بكل ما تيسر لبارق من أدوات التشويه والتمثيل؟ من يدرك لوناً كهذا يدرك حجم الفجيعة وكم يبدو لهذا العالم بالاعتذار عن جرائم اقترفتها أيدي أبناء زعموا أنهم ينتمون لهذه الأرض.

اللون عند شيركو بيكه س حياة كاملة الألوان تمتد من لون الولادة إلى لون الموت وضعها شيركو كلها، في إنائه بعد أن قام بمراجعة مطولة لمفاصل تجاربها الكثيرة ومعايشة تلك التجارب من الداخل وصهرها في مصهر الشعر مولداً منها لوناً جديداً وفريداً وغريباً يسهب في ذكرها وإحيائها ونام معها وهجرها ورثائها. لقد شاهد الألوان كلها، وعرف الألوان كلها حتى تلك التي لم يعرفها أحد من قبل لكنه في نهاية المطاف وصل إلى اللون الأكثر ثباتاً وخلوداً وسرمدية في الكون (لون الموت) الذي يناغيه سراً وتكراراً لا ليأتي إليه بمهابة وقدسية حسب بل لينتظر وصوله إليه:

يالون الموت!
انتظرني في نقطة منسية
كالشعاع بلادي أمام تاريخ السكاكين

لقد امتلأ إناء الألوان ونضج بما فيه، ووقف شيركو على حافة غياهب المجهول ملقياً بكل أسئلته التي تحوم حول رأسه، وتحوم لتحتوي مصيره بانشراح الشاعر وهدوء الإنسان ووقار العبقري وهو يلوح للموت ويناغيه:

يالون الانبهار
حين آتيك..
آتي إليك بلقاء لون مصير شاعر
ومصير بلاد.. لم يسبق لك أن رأيته
سوف أريك لوناً يبهر لونك!

---

(1) الأنفال: تسمية أطلقتها القوات التابعة للسلطة العراقية على حملة إبادة جماعية أشنتها في عدة مراحل عام 1988 م أبيد من جرائها 182 ألف مواطن كردي مدني.. واستخدمت فيها السلاح الكيمياوي.

(2) بارق: هو القائد للحملة العسكرية الثالثة للأنفال، عرف بين الجنود [illegible] اختفى بعد حملات الأنفال من قبل قيادة القوات التابعة للسلطة العراقية لأسباب مجهولة.

(3) كلار: قصبة تابعة لمحافظة السليمانية.